

منطقة الساورة في بداية (مطلع) القرن العشرين من خلال كتابات إيزابيل أبرهاردت.

The Saoura region in the onset of the twentieth century through

Ezabel Eberhardt's writings

ميرين براهيم

المركز الجامعي صالحي احمد ولاية النعامة (الجزائر) merine.brahim@cuniv-naama.dz

تاريخ النشر: 2024/12/22

تاريخ القبول: 2024/11/15

تاريخ الاستلام: 2024/04/06

ملخص :

تُعتبر 'إيزابيل إبرهاردت' 'Isabelle Eberhardt' (1877. 1904) إحدى الشخصيات العالمية التي سافرت إلى الجنوب الجزائري (الجنوب الوهراني) وكتبت عنه، بما فيه منطقة الساورة، فعملت بوصفها صحفية ورحالة وكاتبة على نقل أحداث المقاومة الشعبية، بقيادة الشيخ بوعمامة، وكثير من معاركه العسكرية، ومشاركة قبائل الهضاب والجنوب في مقاومة الاحتلال الفرنسي، كما نقلت الحياة الاجتماعية والدينية للجنوب الغربي في كتاباتها، منها وصف الأماكن والمدن والقرى في الجنوب الغربي، ومنها منطقة الساورة.

وقد وفرت مؤلفات وكتابات الكاتبة 'إيزابيل إبرهاردت' زخماً علمياً تمثل في مادته التاريخية مستعدة مجالات منها ما هو اجتماعي وديني ومنها ما هو عسكري، تسمح هذه المادة بقراءة تاريخية وعلمية لجوانب عديدة للمجتمع بمنطقة الساورة بيئته ومقاومته الشرسة للاحتلال، ونستخلص منها نتائج هامة مثل: الزوايا ودورها، والصمود الاجتماعي ورفض الاحتلال ومقاومته، وإمكانية الإنتاج الزراعي وتنوعه، والتنوع السياحي بين القصور وحياة البدو، وكذا الواحات والطبيعة.

كلمات مفتاحية :

الساورة - إيزابيل إبرهاردت - القنادسة - الزاوية - القصر.

Abstract :

Isabelle Eberhardt (1877-1904) document southern Algeria, particularly the Saoura region, as a journalist, traveler, and witer, She highlighted the people's resistance against French occupation led by Sheikh Bouamama and the involvement of highland and southern tribes, Eberhardt's works Featured social and religious aspects of southwest Algeria, describing its places, cities, and villages.

Her writings provide scientific insight into various areas including social, religious, and military aspects, aiding historical analysis, Extracting from her works include the role of Zawiya, social resilience, agricultural potential, tourism diversity, and the significance of oases and nature in resisting occupation and preserving local culture.

Keywords : - Al-Saoura -Isabelle Eberhardt -kenadsa - Zawiya - Al- ksar

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تُعتبر مذكرات الرحالة والمغامرين، والمستكشفين وغيرهم ممن كتبوا في تاريخ منطقة الجنوب الجزائري عامة، مصادرَ تاريخية لا غنى عنها بالنسبة للباحثين في التاريخ المحلي، حيث تمكنهم من الكتابات الأدبية والإعلامية وغيرها من يوميات و ملاحظات ومراسلات وقصص، خصوصا إذا كانت مرتبطة بمعاناة الكاتب و ضمن أدب الرحلة، مصدرا تاريخيا يمكن اللجوء إليه استنباط الوقائع التاريخية، واستجلاء الصور الاجتماعية، واستقراء التحوّلات العمرانية، والثقافية، والأوصاف والجغرافية لمنطقة ما، ويوجد كثيرا من

الكتابات الأدبية والإعلامية التي تُساعد المؤرخ على إعادة رسم الملامح الاجتماعية والأنثروبولوجية لمجتمع معيّن.

ولعل أكثر هذه الكتابات الأدبية عن الصحراء الجزائرية، التي تركت لنا معطيات معرفية ثرية ومتنوعة حول تاريخها وسياقها الاجتماعي ، هي تلك التي كتبت في فترة الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، ولما كانت منطقة الساورة إحدى هذه المناطق من صحراء الجنوب الغربي الجزائري التي تشتهر بفضاء اجتماعي وثقافي ثريّ، بأنواعه الماديّة وغير الماديّة، من خلال تراثها العمراني والديني والتاريخي والاجتماعي، وطابعها الصحراوي، فقد خصتها أقلام أولئك الكُتاب بكثير من الاهتمام، ومنها كِتابات الرحالة والكاتبة 'إيزابيل إبرهاردت' 'Isabelle Eberhardt' (1877 . 1904)، التي زارت المنطقة وكتبت عنها، والتي من خلالها نحاول في هذه الدراسة التاريخية أن نحدد أهم الملامح والمظاهر التاريخية المختلفة، والعمل من خلال استنطاق هذه الكتابات للوصول إلى أهمّ العناصر ذات القيمة التاريخية في مجالات اجتماعية ودينية وسياسية وعمرانية في سياقها التاريخي في تلك الفترة، والتي تشكل الوجه التاريخي لمنطقة الساورة، في ظل ظروف الاحتلال والاستيطان و لمعرفة ورصد واقع ومؤهلات التحوّل التي جعلت منطقة الساورة تتأثر وتؤثر تاريخيا في تشكيل مستقبلها ومقاومة أشكال الهيمنة، و تعمل مقارنة الدراسة بمنهجية وصفية تحليلية للوصول إلى نتائجها المأمولة

وللوصول لذلك طرحنا الإشكالية التالية : - فكيف وصفت الكاتبة منطقة الساورة ؟ - وما هي أهم الاستنتاجات التي يمكن الحصول عليها من خلال ما كتبتة ؟ وللإجابة عن ذلك اعتمدنا المنهج السردى التاريخي بتقاطعات وصفية تتخللها عمليات التحليل والعرض ممن خلال كتابات ومؤلفات الرحالة والكاتبة 'إيزابيل إبرهاردت'.

2. الكيان الجغرافي للجنوب الوهراني وأهميته :

1.2 الجنوب الوهراني الحيز الجغرافي :

يُشكلُ الجنوبُ الغربيّ الجزائريّ حاليّاً (Sud-ouest-Algérien) والجنوب الوهراني سابقاً (Sud Oranais) قطعة جغرافية أساسية في إقليم الجنوب الجزائري حيث تُكوّنُ المناطق : الخيثر وبوقطب، والبيض ومشيرة، والنعامّة والعين الصفراء..القسم الشمالي لمنطقة الجنوب الغربي، والتي تحتوي جُيوباً صحراوية، وهي أيضاً تمثل الحد الجنوبي للهبّاب العليا (Les Hauts Plateaux) مع مناطق تيارت وسعيدة..إضافة إلى كل من سيدي بلعباس وتلمسان، وتُمثل مناطق أدرار وتندوف حده الجنوبي، ويَلامس بِكُنتلته الجنوبية الجنوب الجزائري، الذي هو جزءٌ من الصحراء الإفريقية الكبرى"والتي تَمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر شرقاً،ومن جبال سلاسل الأطلس شمالاً إلى منطقة الساحل (منطقة السهل: كلمة عربية تمت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية Sahel ومن خلال تداولها أصبحت تُنطق الساحل: منطقة سافانا شبه قاحلة لها تجانس جغرافي تَمتد إلى دول عديدة منها - النيجر - مالي - تشاد - موريتانيا...) جنوباً،وتَبْلُغ مساحتها حوالي ثمانية ملايين كم² (Paul, 1981, p1677) ، وغرباً المغرب الأقصى،في حين يحده شرقاً الجنوب الشرقي الجزائري الأغواط وغرداية وتَمَنَراست أقصى الجنوب ،ويُطلق عليه في كثير من الكُتابات التاريخية لاسيما الإسلامية منها ب : صحراء تلمسان ،في حين يُوصف في الكُتابات الفرنسية ب:"صحراء وهران" أو"الجنوب الوهراني.

وتقسم هذه المنطقة جغرافياً إلى ثلاثة أقسام ؛ الجنوب الغربي الأعلى والأوسط والأدنى، وهذه المنطقة التي تَبْدأ من الشطّين:الشطّ الغربي والشطّ الشرقي يتم عبورها من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي عبر جَبَل العمور (Djebel-Amour)وتَضِيع مِياه أودية وادي الناموس، وادي بوسمغون، وادي صَاقور وادي زقور وادي تيبور..في الكُتبان الرملية (Paul, 1981, p66) ، ومن خلال التقطيع الجُغرافي نستطيع أن نعلم أن إقليم الجنوب الغربي (الوهراني) يَشْمَل بَينَينِ يَينَهما نِطاق "انتقال" فهناك بيئة هِضاب عليا بما يُعرف أيضاً بالسُهل المرتفعة وأيضاً بِمُصطلح "النُجود الجنوبية" بها جُيوب وخصائص صحراوية منها كُتبان رملية وأراضٍ مستوية ونباتات شوكية وواحات .. تُمثل مدخل الإقليم الشمالي انطلاقاً من منطقة خلف الله و الخيثر وبوقطب ومشيرة والبيض والعين الصفراء والتي تُعرف مناخاً

قاسياً شتاءً يَتميز بتساقط الثلوج وانخفاض دَرَجَة الحرارة -0° إذ يُعرف عِنْد العَامَة من الناس بخط " الجَلِيد " (الصَقِيع)، وصيف حار وجاف نوعاً ما مع هبوب تيارات هوائية طيلة فصول السنة مما يخلق أحياناً زوايع رملية.

- ثم نجد نِطاقاً شبه صحراوي يَربط هذه البيئَة بالبيئَة الصَحراوية ويشمل:مناطق جنين بورزق وزوبيا وبني ونيف وزوزفانة وجَنان الدار.. هذا النِطاق الذي يَشهد تَقَلص الخِصائص الجغرافية والمناخية والنباتية لإقليم الهَضاب العُليا ويُعرف نُمُو مَظاهر البيئَة الصَحراوية ويبدأ النِطاق الصحراوي، حيث يتداول الناس أيضاً مُصطلح خط "الجريد"

(Trumelet, 1900, p280).، نِسبة إلى زِراعة النخيل(التمور)، بِتَغْيير مَظاهر السَطْح والتي تَتميز بِخصائص جُغرافية ومناخية خاصة من تَضاريس وارتفاع دَرَجَات الحرارة وغطاء نباتي نادر وجفاف وغير ذلك لتكوّن مَنطَقة تيميمون النُقطة الجنوبية والحد الجنوبي لإقليم الجنوب الغربي (الوهراني) بِالضبط "وَاحَة تَبَلْكَوْزة (L'oasis de Tabelkosa) وهي الوَاحَة الأقرب إلى الجنوب الوهراني، والتي تَنتمي إلى مَنطَقة أدرار شَمال تيميمون لِتَظهر الصَحراء الحقيقية مَا وراء القُصور، وهي مَناطق أدرار وتندوف وعين صَالِح..وَتَلتَحَم بالصَحراء الإفريقية الكُبرى،وَتَنقسم واحات تَوَات إلى عَشر مَناطق وتقع على الضِفَة اليُسرى لوادي مسعود، وتَتضمن أربعين قصراً وتُعتبر وَاحَة تيممي (L'oasis de Timmi)أهمها، وتَنقسم واحات تيدكلت (Les oasis du Tidikelt) إلى مجموعتين، أهمها مَنطَقة عين صَالِح (Insalah) والتي هي الأكثر أهمية" (Alexandre, 1834, p07) ، ومن خلال البَحْث نكتشف صُعوبة تَحديد المَجال الجُغرافي لِلجنوب الوهراني (الغربي) خُصوصاً في شَقه الجنوبي حيث تُشير بَعض الكِتَابَات الفرنسية " إلى أَنَّ الحَد الجنوبي غَيْر مُحدد وَرغم ذلك يُشار إلى أَنَّهُ يُمكن أن تكون مُنحدرات جِبَال القصور والوَاحَات التي تَقبع عِنْد أَعْتَاب هَذِهِ المُنحدرات هي ذلك الحَد،أَمَّا الحَد الشَمالي أو العُلوي يَرتبط بِالجزء العُلوي للأطلس، حيث تَنتهي المَحَاصِيل والغِطاء النَبَاتي،والمُدُن المحتلة عسكراً مُنذ مُدة التي تُكوّن هَذَا الخَط وهي: مِن الغَرَب سَبْدُو جَنُوب تلمسان، والضَّايَة جَنُوب سِيدِي بَلْعَاس، وسعيدة جَنُوب معسكر، وتيارات جنوب مستغانم.. والحُدُود الشَّرْقية عند الخَط الرَابِط بَيْن الجزائر العَاصِمَة والأغواط، والحُودُود الغَرِبِيَة مع المغرب.." (Armieux, 1866, p05) .

2.2 منطقة الساورة في الجنوب الوهراني .:

- تختلف القيمة المورفولوجية لإقليم الجنوب الغربي الجزائري باختلاف مجالاته التضاريسية حسب تكوين كل مجال، ولذلك نجد ارتباط الحياة واستمرارها بالمنطقتين أمراً جلياً وواضحاً، يُمثل ارتباطهم بالهضاب العليا خصوصاً الجنوبية منها (الهضاب العليا والسّهول المرتفعة تضم شمال ولايتي النعامة والبيض) استقراراً و تنقلاً نحو الصحراء، وكذا في اتجاه التل من خلال رحلاتهم الموسمية وقوافلهم التجارية للعيش في المساحات السهبية، ثم ارتباطهم بفضاء الصحراء (ولايات بشار وولاية أدرار: أربعة أقاليم تاريخية وهي-قورارة عاصمتها تيميمون -وتوات وعاصمتها تمنطيط -وتيديكلت وعاصمتها أولف-وتنزروفت وعاصمتها بُرج باجي مخطار -إضافة إلى منطقة تندوف)، هذه المناطق التي تكون غنية بالغطاء النباتي المتنوع .

-ويُطلق لفظ السّاورَة إداريا وسياسيا على الرقعة الممتدة من منطقة بني ونيف إلى أقصى الجنوب، أما جغرافيا وطبيعيا فتُطلق على المنطقة الممتدة من منطقة إقلي حيث يُشكل في هذه النقطة كل من واد قير (غير) واد زوزفانة. بعد التحامهما وادي الساورَة (ينطلق وادي السّاورَة من جنوب اقلي، يتشكل من وادي قير ووادي زوزفانة (Meyrat, 1914, p211)، من إقلي إلى القصابي 250 كم، ويتراوح عرضه ما بين 10 كم - 25 كم، يعبر سلسلة من الواحات (28 واحة)، بعد منطقة القصابي يُسمى وادي مسعود إلى توات على مسافة أكثر من 200 كم، (Meyrat, 1914, p21) وجاء احتلال الجنوب الغربي الجزائري وصحرائه تكملة للمخطط الاستعماري ودوافعه الإستراتيجية والموقع الجغرافي الذي ألهم بالتوغل نحو إفريقيا، والدوافع السياسية والصراع المستمر مع المغرب الأقصى، وكذا الاقتصادية وما تزخر به مناطق السّاورَة والواحات من ثروات معدنية ونباتية وحيوانية، وأسواقها وقوافلها التجارية فأصبحت هدفاً ومطمعاً للفرنسيين، فهي أيضاً " مساحة تربط بين منطقتين هامتين إداريا وتجارياً وهي : من ورقلة شرقاً إلى فكيك (فقيق) غرباً " (Colomb, 1858, p09)، ومجالاً واسعاً "للمستكشفين منهم الألماني رولف Rholf سنة 1864م غادر المركز الإفريقي، ودخل من الشمال تيديكلت ثم الساورَة، وواد غير، وقد تجنب تافيلالت وواد درعة، فوجد سلسلة من الواحات الصحراوية عامرة بسكانها، وغنية بالتمور والماشية شكلت في نظره لأولؤة وقطباً جذاباً .." (Paquay, 1899-1905, p14)، هذه المعلومات أصبحت بين أيدي السلطات

الاستعمارية ، فشرع الاحتلال في مواصلة عملية التوسع انطلاقاً من المراكز الاستيطانية التي أقامها في شمال الصحراء مثل العين الصفراء والبيض ، وكذلك بعض الحملات التي كانت من الجنوب الشرقي من مناطق الأغواط وورقلة..ويمكن أن نُصنف عملية احتلال المناطق الصحراوية لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري تقريباً على النهج المُتبع في باقي عمليات الاحتلال بِجَمِيع مناطق جهات الجزائر ، من مرحلة الاستكشاف والإطلاع وجمع المعلومات ، إلى مرحلة التوغل العسكري والإخضاع وهذا ما نلاحظه في احتلال مناطق الساوره والواحات .

3 علاقة الكاتبة بمنطقة الساوره :

إيزابيل إبراهيم جمعت بين الإعلام والتوثيق لمختلف الأحداث التي عايشتها في الجنوب الغربي الجزائري وقد " ولدت إيزابيل ويلهيمين ماري إبراهيماردت يوم 17 فبراير 1877 بـ ميران (سويسرا) من أم أرستقراطية روسية تدعى نطالي دوروتي شرلوطي أرملة الجنرال بفال كرلوفتش دومورد...ذكرت أن أمها صرحت لها وهي على سرير الموت بأنها ابنة طبيب مسلم ..وفي جنيف كانت لها ارتباطات مع أوساط المهاجرين ، فكانت تستقبل المطرودين والثوريين.." (بلعرج ، 2021 ، ص 52) ، للكاتبة والرحالة 'إيزابيل إبراهيماردت' علاقة وطيدة بالجنوب عموماً ومنطقة الساوره بالخصوص ، بسبب إقامتها في آخر حياتها بالجنوب الغربي ، حيث استقرت بمدينة العين الصفراء ، وزارت منطقة الساوره ومكثت مدة في زاوية القنادسة (1903-1904) ، وهي " من أصول روسية وأم ألمانية ، وأب اختُلف في هويته " (Khelifa, 2005, p13) ، وجابت الجزائر وسافرت بين مدنها وبلداتها شمالاً وجنوباً ، الجزائر ، عنابه ، الوادي ، باتنة ، العين الصفراء ، البيض ، بشار ، والقنادسة...

- وقد عُرفت بتنقلها وسفرها و عشقها للصحراء والحياة البدوية ، وارتدائها لباس الأهالي والفرسان ، كما عُرفت بعلاقتها و قربها من الزوايا ، و عملها مراسلة في الجنوب الغربي لمجموعة من الجرائد الفرنسية الصادرة بالجزائر... و تُوفيت بعد عودتها من رحلة إلى منطقة الساوره ، في ربيع حياتها خلال فيضانات العين الصفراء 1904 ، ودُفنت بمقبرة سيدي بوجمعة ، ودُفنت في البلاد التي عاشت فيها وكتبت عنها ، ووصفت مدنها وبلداتها وزواياها

ونساءها وثقافتها، وتركت مجموعة من الكتابات منها المقالات و القصص وملاحظات السفر، قام بجمعها فيكتور باريكو Victor Barruccand، الذي كان مديرا لجريدة الأخبار التي كانت مراسلة لها، ثم نشرها في مجموعة من الكتب ومن أهمها:

- 'ملاحظات الطريق' (Isabelle Eberhardt, NOTES DE ROUTE) جُمعت فيه مذكرات السفر وملاحظات الترحال، وغيرها من الكتب التي جمعت أعمالها...

- حصلت كتابات إيزابيل إبرهاردت على شهرة ومتابعة واسعة، فترجمت أعمالها إلى مختلف اللغات في مختلف مناطق العالم، كما جسدت شخصيتها في أعمال فنية وثقافية لتكون موضوعا لدراسات نقدية ومقاربات فكرية بها، ودراسات علمية تاريخية واجتماعية، بما جعلها ظاهرة إنسانية مشتركة، ومازال هذا الشغف الدولي بها متواصلا، بسبب العلاقة بين كتاباتها ومنطقة الجنوب الغربي، وبالأخص منطقة الساورة، إذ تركت الكثير من الكتابات عن المنطقة، اعتبرت مصدرا أدبيا مهما في معرفة السياقات التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية في هذه المنطقة، وقد اندمجت في الحياة الصحراوية إلى حد تأثرها بلغتها وثقافتها، وقد أحصى لها الباحث "محمد رشد" وهو من أصول ألمانية، عاش في منطقة الساورة، مئة كلمة من اللغة الدارجة في كتابها "في ظلال الإسلام الدافئة (Mohamed (1991, p353-357. كما، اندمجت في الحياة الصحراوية من خلال لباسها وطريقة حياتها وممارسة طقوسها الطرقية وزيارتها للزوايا وحبها للبلدات الجنوبية و دقة وصفها لعمارتها وأجوائها وحياة الناس فيها، مثل الحياة الدينية المتمثلة في حياة الزوايا مثلا و الحياة الاقتصادية من خلال وصف أنشطة الناس ومعاشهم وأسواقهم، كوصفها لبني ونييف وواكدة وبشار والقنادسة، ما جعل كتاباتها ذات مصداقية تاريخية وهي الملزمة بالحقيقة ونقل الواقع :

(Elle était libre l'écrire ce qu'elle pensait ou, que par sa position ambiguë elle n'était pas obligée de passer sous silence certaines vérités) (Mohamed, Roched. (1991, p64)

- ومن خلال مجموعة من العوامل والاستقرارات نُعطي لكتابتها أهميتها التاريخية من حيث المصدقية وارتباطها بالسياق الزمني والواقعي لمنطقة الساورة :

- عيشها في منطقة الساوره و اندماجها مع واقعها الديني و الاجتماعي.
- مكوثها في زاوية القنادسة ومعرفتها بالطريقة الدينية وأشخاصها والالتزام بعقيدها.
- توثيقها الصحفي والأدبي للأحداث والشخصيات بعيدا عن الخيال الخادش للواقع التاريخي.
- مَوقفها البعيد عن الموقف الكولونيالي النمطي الذي يخدم الاحتلال.
- ارتباطها بالمجتمع في الساوره والعيش داخله، بفضل زواجها بجزائري واتقانها العربية.
- واقعية كتاباتها ومصادقيتها التاريخية التي حصلت ما جعل كتاباتها ذات أهميّة ومصادقية...

وهذا ما جعلها قريبة من حياة الناس ومعرفة طريقة تفكيرهم وعيشتهم، فتقول عن نفسها: " غالبا ما كنت ألام لأتني أجد متعة مع عامّة الشعب، لكن أين تكمن الحياة إن لم تكن وسط الشعب؟ وفي أيّ مكان آخر بعيد عن الشعب يبدو لي العالم ضيقا " (إبرهاردت، 2014، ص278).

3. وَصَف منطقة السّاوره في كتابات إيزابيل إبرهاردت :

سواء من خلال اليوميات أو الملاحظات أو النصوص الأدبية كانت إيزابيل إبرهاردت دائمة الكتابة في سفرها، فهي تصف الطريق إلى وصف الأماكن والبلدات والمدن، والأحداث التي صادفتها أو سمعت عنها، كما تصف الشخصيات التي قابلتها، بأسلوب أدبي سردي يهتم بوصف الفضاء الطبيعي ونقل المشاعر، فهي تصف المُدن والبلدات وصفا دقيقا ذا مشهدية تجعل المتلقي يتخيل تلك المشاهد، ومن خلال الوصف الطبيعي و المعماري نكتشف حالة المدن والبلدات في تلك الفترة، مثلما تصف بني ونيف، وبشار والقنادسة ...

1.3 منطقة بني ونيف :

كانت بني ونيف مدينة تعج بالمستوطنين من مختلف الأجناس والديانات إذ تُصنّفه الكاتبة : " وأخيرا بني ونيف، وهي محطة صغيرة مع الحزن المؤثر لخطي السكك الحديدية للذين ينتهيان فجأة قبالة المدى اللا متناهي... وسط الخرابات، وفي أماكن متفرقة، شوارع صغيرة ما تزال قائمة، مأهولة ومغطاة بروافد النخل الصغيرة" (إبرهاردت، 2014، ص160)

وهذا يبيّن حالة البلدات التي كانت تحت نير الاحتلال ووصول السكك الحديدية إلى منطقة الساوره في بداية القرن العشرين، (1903) وتصف زاويتها من الداخل " كان الباب مفتوحاً على الرواق الواسع المغطى الذي يُحيط بالطابق الأول، وإلى الأمام بدت دعامة مربعة من الطوب وسط الظلمة تحت انعكاس الشمعة..." (إبرهاردت، 2014، ص204).

بما يدل على معابنتها لهذه الأماكن و المبيت فيها كما تشير، ووصف سكانها وحياتهم، وتصف الطريق إلى بشار، الذي كان يشهد أعمال ربط السكك الحديدية، " يتوقف خط السكك الحديدي في تلك اللحظة على بعد بضعة كيلومترات خلف بوغيّاش، وتمنح الأشغال جوّاً من الحيوية التجارية لذلك المركز المعزول" (إبرهاردت، 2014، ص267)، وكان مدّ السكك الحديدية أحد المشاريع التي عمِل الاحتلال على تنفيذها لتسهيل التوسع في الجنوب واستغلال ثرواته.

للإشارة أن منطقة بني ونيف أو قصر بني ونيف "140 كلم عن جنوب العين الصفراء...الذي كان يُسمى قديماً –آيت سيمين- نهاية القرن 10م دخول العنصر العربي إلى المنطقة (من بني عامر) في النصف الثاني من القرن 13م مجيء مبعوثين من الملك الزياني وهو أبو حمو موسى الثاني في نهاية 1370م للتموين ، وتقول الروايات أن تأسيس القصر يعود إلى سيدي ونيف ..، ان هذه الشخصية هي التي منحت اسمها لهذا البلد.." (بن عمارة، 2013، ص109)

2.3 منطقة بشار:

تُواصل الرحالة والكتابة وصفها "وهكذا دخلنا واد بن الزيرق وغمرة الضوء...فبين الحد الشديد الانحدار لجبل بشار وسور عنتر الشاهق هناك تلال حادة مثل أسنان منشار، وسلاسل قمم الجبال التي تحيط مرّة أخرى الوادي المائل إلى منحدر لطيف" (إبرهاردت، 2014، ص271)، إلى أن تصل مشارف بشار في وادّة حيث البساتين.. " وقد ألفت في بساتين بشار مشاعر أحسستها في سرير وادي بوسعادة الذي لا يُنسى، جوهرة الجنوب، هناك كانت نساء مقرفصات على صخور صغيرة، مرتديات الملاحف الزرقاء والسوداء، يغسلن ثياباً أخذن يضربنها بسيقان الجريد" (إبرهاردت، 2014، ص276)، وهكذا نجد وصفا للبساتين والنساء وطريقة غسلهن للثياب في ذلك الوقت، وحبّها للبلدات الجنوبية و دقة وصفها لمشارفها ومنازلها و حياة الناس فيها، تصف ولوجها "بشار" مع الدرب الرملي حيث

ينحني الوادي بانسياب في اتجاه الحزام الأخضر للوادي... وفي الداخل على أرض ممهلة و صامته، تابعت سيرها مع أزقة متهاكة، أين تظهر المنازل الطوبية المتواضعة ...

(A Béchar au pied de la dune la vallée s'incline insensiblement vers la ceinture verte de l'oued ... a l'intérieur sur la terre douce et silencieuse nous suivions des ruelles en ruines de longs passages couverts...les hautes maisons en toub)
(Barrucand & Isabelle, 1921, p39)

وتمنحنا إشارة مهمة عن أسماء بشار المتداولة يومها "بشار وتاعكة وكولومب، أسماء مختلفة لكنّها مختلطة، والواقع أنّ بشار هو اسم المنطقة، هو اسم الجبل الذي يحجب الأفق، وتاعكة هي القصر وبستان النخيل الواقع على مستوى أعلى من واحة، والاسم الغريب المستورد، كولومب، يشير إلى البلدة التي كانت في طور البناء" (إبراهاردت، 2014، ص274)، فتصف وجود الجيش الفرنسي والموالين له من الفرسان في المدينة قبل سفرها إلى القنادسة حيث الزاوية التي أقامت فيها.

3.3 قصر القنادسة وزاويتها الدينية :

-وتنتقل إلى قصر القنادسة، وبذات الدقة في وصف التفاصيل للبلدات تصف " القنادسة وقصرها الطوبى ذا البيوت المترصة في فوضوية أنيقة، ذات الأسطح المتركة في انسياب، المحاطة ببساتين النخيل الخضراء والرمال الذهبية معمّدة الحجارة الغشيمة.. " (إبراهاردت، 2014، ص53)

"kenadsa monte devant nous grand ksar en toub de teinte foncée et chaud précédé vers la gauche de beaux jardins très verts le ksar dévale en un désordre gracieux de terrasses superposée suivant la pente douce d'un monticule a droite la dune dorée avec ses entablements de pierre se dresse presque abrupte"

، "وأخيرا القنادسة ترتفع أمامنا كقصر كبير شيد من الطوب بلون غامق ودافئ تسبقه من جهة اليسار بساتين شديدة الاخضرار جميلة، وينحدر القصر في عدم انتظام... وفي جهة اليمين ينتصب الكتيب الذهبي بأسطحه الحجرية" (إبراهاردت، 2014، ص280)، "ويدخل

الناس إلى القصر من خلال باب مربع كبير بمصرعين ثقلين..." (إبرهاردت، 2014، ص281)، و في زاوية القنادسة وشيخها السيد محمد بن بوزيان المؤسس والشيخ إبراهيم، تصف الزاوية من الداخل، وكيف دخلت وأقامت فيها، ومن خلال مكوثها وإقامتها في قصر وزاية القنادسة و ما كتبه من ملاحظات واستنتاجات حول الدور الاجتماعي للزاوية حيث ذلك نُورد بعض الخصائص الأساسية والتي مثلت عُرق هذا الدور الاجتماعي وهي :

■ التربية والسلوك :

حيث يكون تأثيره جلياً وواضحاً على السلوك والعادات فقد " غيّر التأثير القديم للصوفيين العرب بشكل عميق في المؤسسات والعادات بالنسبة لأهل القنادسة "(إبرهاردت، 2014، ص303)، وذلك بارتباط سُكان الجنوب الغربي بالزوايا والفكر الشيعي ارتباطاً كبيراً كما هو الشأن عند سُكان منطقة الساورَة بمُختلف فئات التركيبة السكانية والاجتماعية أمازيغ وبدواً رُحلاً جمعهم الزاوية ووحدتهم بمرجعيتها، حيث كانت "الزيارة" هبة سنوية وموسمية تُقدمها القبائل الرُحل وكذا سُكان القصور سنوياً لمُختلف الزوايا ومشايخ الطُرق الصوفية في المنطقة.

■ التكافل الاجتماعي :

-قامت الزاوية بدورها الاجتماعي في مساعدة الناس وذلك بمواجهة الفقر والبؤس إذ "يفضل الزاوية لا يُعرف البؤس في قصر القنادسة، وشوارع القصر خالية من المتسوّلين، فكل المساكين يذهبون ليحتموا في ظل الزاوية" (إبرهاردت، 2014، ص160)، وهو دور مؤثر في حياة النَّاس.

■ ضمان تعليم أفراد المجتمع :

إلى جانب دورها الكبير في ضمان الأمن الغذائي عملت الزاوية على محاربة الجهل والأمية وذلك بدورها التعليمي، ففي زيارتها تُورد الرحالة إيزابيل : أن هناك طلبة قادمين من مناطق مختلفة للدراسة فيها "فخلال سنوات يكون التحصيل الدراسي في الإطار المجرد والعادي للمساجد العتيقة، وتمارين الورع التي تذهب بأغلبية أولئك الشبان المنتمين سلفاً إلى طوائف صوفيّة حدّ النشوة كلّ يوم" (إبرهاردت، 2014، ص315)، وذلك في إطار مواجهة ومقاومة سياسة الاحتلال القاسية والفظيعة..والتي عمّلت على تجهيل المجتمع .

■ التقاضي إلى الزاوية :

- ومن آليات هذا التأثير الاجتماعي أيضا هو التقاضي عند الزاوية وشيخها ومجلسها ، "فقائد الزاوية هو السيد الوحيد الوارث للقصر وهو الذي يفصل في كل القضايا... هنا للتصوّف الكلمة الأخيرة وتتم العودة إليه في ما قضي به القاضي " (إبرهاردت، 2014 ، ص303) ، فكان للزاوية وشيوخها دور القضاء وحل مختلف القضايا والصُلح وكل ما يتعلق بالجانب الاجتماعي عموما .

4 . منطقة الساوره والمقاومة في كتابات إيزابيل إبرهاردت.

1.4 وصف التواجد العسكري الاستعماري ومقاومته بمنطقة الساوره :

- كما كان الجنوب الغربي معقلا للمقاومات الشعبية ضدّ الاحتلال، فبعد مقاومة أولاد سيدي الشيخ (1864-1880) انطلقت مقاومة الشيخ بوعمامة (1881-1908) والتي دعمتها القبائل والمناطق المختلفة بما فيها قبائل منطقة الساوره، فتصف الكاتبة ذلك التواجد العسكري في منطقة الساوره من خلال انتشار المراكز والمعازل العسكرية، المكتظة بالعساكر و الفرسان الموالين لهم على طول الطريق، وفي البلدات والمدن التي عبرتها، مثل بوعياش و بن الزيرق وبني ونيف وجنان الدار وبشار وغيرها، وهي التي جاءت في سياق أحداث المنقار وتاغتيت حيث جرى القتال بين المقاومة المدعومة من قبائل و الجيش الفرنسي المدعوم بالمرتزقة، " صعدت إلى المستشفى في المعقل الذي يطل على المدينة... وكان جرحى المنقار يتيهون في الظل بضمدات ناصعة البياض في خمول نقاهتهم " (إبرهاردت، 2014 ، ص303)

، " في مكان مرتفع يقوم معقل بشار بأسواره الخفيفة من الأجر وأبوابه الواسعة المحروسة على الدوام، وفي الداخل مواد البناء وركام من الحجارة، وإلى اليسار باحة كبيرة ربطت بها أحصنة المخزن الفرنسي الهزيلة والصغيرة التي كانت تمضغ بكسل باقات الحلفاء الهزيلة، وداخل الأكواخ استلقى المخازنية واضعين رؤوسهم على قرابيس سروجهم وبنادقهم في متناول أيديهم " (إبرهاردت، 2014 ، ص275)، "في السنة الماضية، عندما كانت بشار محتلة، أغار المخازنية والجنود على تاعكدة وواكدة، وهذه السنة بعد أن اطمأن القرويون بعض الشيء استعادوا شجاعتهم وعادوا إلى بساتينهم " (إبرهاردت، 2014 ، ص276)

كما أشارت في مقاطع مختلفة عن رفض سكان منطقة الساوره للاحتلال وممارستهم للمقاومة " وانتشرت في إشاعات في الآونة الأخيرة بين الأهالي بأنّ التهديدات أطلقت من قبل

البدو الرحل إلى القائد بيرون قائد رتل بشار، وفيها أنّ البدو الرحل هددوا بمهاجمة الرتل إذا لم ينسحب" (إبرهاردت، 2014، ص276)، فهذا الوضع جعل القتال لا يتوقف في منطقة الساوره"، كان ذلك قبر عريف في سلاح الفرسان ماريشال قُتل قبل شهر في قمة الشعبة الحمرا في بني سمير أثناء مطاردة أحد الجيوش" (إبرهاردت، 2014، ص251)، وهكذا لم يستقر تواجد الاحتلال في الجنوب الغربي بسبب المقاومة المستمرة والرفض الشعبي للاحتلال والتواجد العسكري الفرنسي، حتى أنّ أيزابيل تصف كيف كان العسكري الفرنسي في تاغيت ينام وهو ممسك بسلاحه...

2.4 منطقة بني عباس جوهرة إقليم الساوره :

- جاء احتلال منطقة بني عباس ضمن التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي والتي ترتبي في أحضان العرق الغربي الكبير ،منطقة بني عباس التي تُعد "واحدة من أهم أجمل المواقع الصحراوية بُنيت على جانب هضبة صغيرة تُحيط بها سيوف الكتبان الرملية وبها واحة نخيل مُترامية على ضفاف وادي الساوره ،وبها موقع عسكري.." (Shell, 1934-1935, p26) وهكذا يتنوع فضاء الساوره ببيئاته العديدة ، وحُظيت المنطقة بأهمية بالغة لما تملك من إمكانات ومؤهلات طبيعية وتاريخية ولذلك قام الاحتلال الفرنسي في إطار استراتيجيته بالاهتمام بهذه المنطقة من خلال توغله نحو الجنوب ويذكر نص تاريخي بأنه : "تم بناء مركز عسكري ببني عباس" Beni-Abbés على بعد 200 كم عن مركز بشار سنة 1901م إقامة فسيحة ،مجهزة بشرفات أرضية وأسقف مزدوجة، تصل درجة الحرارة في الظل في فصل الصيف 50°، مع وجود الكتبان الرملية والمزارع وواحات النخيل..يقوم السكان الأصليون بجني التمور، وبالصيد : مثل الدخن والذرة الرفيعة.. وأمام دهشتهم نجح جنودنا في زراعة البطاطس والطماطم والملفوف والخس (السلطة) والجزر.. والكرمة والدواجن والتأقلم مع الإبل..كل هذا جنبا إلى جنب مع التدريبات العسكرية دائما في حالة تأهب دائم .." (A,Renard, 1910, p43).

- نَسْتَج من خلال هذا النص التاريخي الذي يُؤرخ للزراعة الصحراوية الجزائرية ،إضافة إلى واحات النخيل وإنتاج مُختلف التمور، أن هناك مُنتجات زراعية مُختلفة ومنها الحبوب : الدخن والذرة وغيرها ،ويؤكد أن الأرض الجزائرية لاسيما الصحراوية منها يُمكن أن تُقدم المُنتجات الغذائية الضرورية وهو الأصل قبل الاحتلال الفرنسي الذي سعى إلى تغيير أصول

الزراعة في الجزائر وتوجيهها لخدمة أغراضه الاقتصادية وتحويل الأراضي الزراعية من الزراعة الغذائية إلى الزراعة التجارية وهي من زراعة الحبوب المصدر الأساسي لسكان الجزائر إلى زراعة الكروم لإنتاج الخمر، ما جعل الاقتصاد الجزائري خادما للاقتصاد الفرنسي ومكملا له ، عكس الأصل وفي ذات السياق ما ذكره شارل اندري جوليان نقلا عن المؤرخ الإغريقي - سترابون - خلال العهد النوميدي " ...وقد ذهب سترابون إلى الجزم بأنّها (نوميديا الغربية) أخصب من نوميديا الشرقية ، وأنّ سوق سنابل القمح البالغ حجمها حجم الخنصر ، يتجاوز طولها مترين ، وأنّ أهلها كانوا يتحصّلون على صابيتين من دون أن يبذلوا جهدا كبيرا ...".

4. خاتمة :

في ختام هذه الدراسة عن كتابات إيزابيل ابراهاردت والتي ساهمت من خلالها بوصفها إعلامية ورحالة وأديبة في رسم ملامح الحياة في بداية القرن العشرين، في الجنوب الغربي، ملامح اجتماعية ودينية وسياسية في سياق تاريخي ولامح الطبيعة والعمران في تلك الفترة، حيث المنطقة تحت الاحتلال الفرنسي، ويشهد مقاومة شعبية بقيادة الشيخ بوعمامة، بما منح للمؤرخ مادّة لاستنطاق القيمة التاريخية لمثل هذه الكتابات والتي تتجلّى في مجموعة من النتائج والاستنتاجات الخاصة بالمنطقة الخاصة بمنطقة الساوره ونذكر منها :

-وجود ظاهرة الاستيطان بمختلف الأشكال في منطقة الساوره : وذلك بتواجد القوات الاستعمارية بمختلف وحداتها والت استطاعت أن تنتشر في الجنوب الغربي الجزائري ومنه في منطقة الساوره وتُنشأ العديد من المراكز العسكرية والثكنات وأبراج المراقبة، باعتبار الاستيطان العسكري كان أكثر انتشارا وتواجد من خلال عمليات التوغل والاحتلال ، ومع مرحلة الاحتلال الهائي ظهر الاستيطان المدني تمثل خصوصا في رجال الدين والموظفين والعمال من الفرنسيين وكذا من العديد من الدول الأوروبية في ورشات الحلفاء والمناجم وأشغال خط السكة الحديدية ودوره الاقتصادي والتجاري والعسكري ..

-حالة البؤس والفقر والكآبة بوجود المستوطنين : من خلال السياسة الاستيطانية الجائرة والفظيعة ومنها سياسة المصادرة والتهجير والضرائب والتعذيب إضافة إلى الظروف المناخية والطبيعية انتشرت حالات الفقر والمجاعة، انعكست عنها كثيرا من الأوبئة والأمراض مثل التيفيس والطاعون والتفوييد والأمراض الصدرية ... وحصد الموت الآلاف جوعا ومرضا وقتلا

وتعديبا .. في حين تمتع المستوطنون بحياة الترف وسيطروا على ممتلكات السكان التي صادروها .

-وجود الزوايا ودورها الديني والاجتماعي والسياسي : نستنج ذلك الدور البارز الذي أدته الزوايا بمختلف مرافقها وأدوارها في ظل الظروف السيئة السابقة الذكر، والتي وجد فيها السكان منهم الفقراء والمتشردين واليتامى والمطاردين والمرضى الملجأ الآمن، والمكان الذي يجد فيه حاجاته المختلفة، وتعدى دور البعض منها إلى الدور الديني من وعظ وإرشاد وتوجيه.....، إلى الدور السياسي للتوعية والتعبئة مثل ما قام به الشيخ بوعمامة الذي استطاع تعبئة مريديه وأتباعه وتحويلهم إلى ثوار ومقاومين .

-البيئة في منطقة الساورة ومنها واحات النخيل والقصور والزوايا : تتشكل بيئة الساورة من فسيفساء تتألف وتتقاطع، فهي تجمع بين العديد من البيئات والكائنات الطبيعية والعمرانية والاجتماعية من قصور تتميز بالكثير من العادات والتقاليد وكذا واحات النخيل ومنتجاتها المختلفة التي تعتمد عليها الساكنة في تدابير حياتها اليومية، وأيضا الزوايا والتي مثلت مؤسسات وتنظيمات دينية واجتماعية احتضنت الكثير من فئات المجتمع في تلك الظروف.

-رفض سكان المنطقة للتواجد العسكري ومقاومته : رغم الزحف العسكري الاستعماري وعتاده وعدته واجبه السكان بمقاومات شعبية مسلحة رغم الاختلاف البين بين الطرفين وصعوبة التضاريس دارت معارك طاحنة وحربا ضروسا عبر من خلالها سكان الجنوب الغربي الجزائري ومنهم سكان منطقة الساورة قبائل ذوي منيع وأولاد جرير، وسكان القصور المترامية في الفضاء الصحراوي عموما ودعمهم المطلق لمختلف المقاومة المسلحة وهذا تعبيراً ورفضاً للاحتلال الفرنسي .

-رفع لواء المقاومة والانضمام إلى مقاومة الشيخ بوعمامة: في سياق مقاومة الاحتلال الفرنسي وسياساته الاستيطانية المختلفة لبث قبائل منطقة الساورة والصحراء الجزائرية نداء الجهاد الذي أعلنه الشيخ بوعمامة ضد القوات الاستعمارية الفرنسية ، وقد شكلت قبائل ذوي منيع وأولاد جرير وسكان مختلف القصور قوة وكتلة حربية مهمة في فرق الشيخ بوعمامة في حربه وتوطدت العلاقات بوجود الشيخ بوعمامة بالمنطقة في مناطق: تاغيت وتيميمون

ودلدول خلال إقامته وعملياته العسكري، وهناك العديد من الإحصائيات التي تُشير إلى ذلك من خلال الوثائق .

-إمكانية إعادة تأهيل الأرض الزراعية لمنطقة الساورة ومنها زراعة الحبوب : نستنج أيضاً بأن الثربة الصحراوية ومنها ثربة منطقة الساورة عبر التاريخ قابلة للإنتاج ومنها زراعة الحبوب بتوفر المياه من المياه الجوفية ومياه الفقارة والأودية ، من جهة أخرى يُمكن تدخل الإنسان الذي يمكن أن يُعيد تأهيل الأرض الزراعية لمنطقة الساورة للوصول إلى إنتاج محلي ومنه السعي الوصول إلى إنتاج وطني في إطار تحقيق الأمن الغذائي وتنوع المنتجات.

-إمكانات ومؤهلات سياحية كبيرة : يُمكن كذلك تحديد مجالات الحياة على سبيل الذكر المجال السياحي الذي له دور فاعل في دعم الإنتاج الوطني وتنوع المجالات العامة للبلاد بتفعيل الدور السياحي ليكون مجالا اجتماعيا وأيضاً مصدراً للدخل للمساهمة في الاقتصاد الوطني حيث نجد في منطقة الجنوب الغربي الجزائري مظاهر سياحية بارزة وهامة تُشكل مساراً قوياً إذا ما تم اعتماد استراتيجية سياحية ناجعة ومنها :

-السياحة الدينية (الزوايا -المواسم الدينية..)

-السياحة الطبيعية (الكثبان الرملية -الواحات -الفقارات -رُكوب الابل -الأودية...)

-السياحة الرياضية (الرياضات الرملية :- التزحلق - الطيران الشراعي - الدراجات ..).

-وغيرها من النتائج التي يُمكن الوصول إليها من خلال تَلقي وقراءة عميقة لكتابات "إيزابيل ابراهاردت" المُختلفة حول الجنوب الغربي، ومنه منطقة الساورة .



قصر القنادسة (الساورة)

Pierre Baudin, 1902, p7.



سوق منطقة بشار (الساورة)

WWW.Delcampe ,net.



حالة البؤس والفقر منطقة بني ونيف

WWW.Delcampe ,net



القوات الاستعمارية الفرنسية في اتجاه بني عباس. C.Trumelet, 1884, p280.

Bibliographie :

1. Trumelet, C. (1900). Les Français Dans Désert. Journal Historique.
2. A, Renard, (1910). Histoire De L'Algerie. (B. Saint-Germain, Éd.) Paris, France: Librairie Hachette.
3. Alexandre, D. (1834). L'Expédition Du Touat. (H. Charles, Éd.) Sidi Bel-Abbés: Lavauzelle.
4. Armieux. (1866). Topographie Médicale Du Sahara De La Province D'Oran. Alger: Imprimerie Tyographique De France .
5. Baudin, P. (1902,). Sites et Monuments Algerie, . (H. Pierre, Éd.) Paris,, France.: Touring-Club De France,.
6. Colomb. (1858). C.L.de Exploration Des Ksours Et La Province D'Oran. (D. F. E'Diteurs, Éd.) Paris, France: Labraire Algérinne.
7. Barrucand & Isabelle, B. V. (1921). Dns L'Ombre Chaude De L'Islam. (Fasquelle, Éd.) Paris, France: Librairie Charpentier et Fasquelle.
8. Khelifa, B. (2005). Isabelle Eberhardt Et L'Algerie . Alger, Algerie: Dar El Barzakh.
9. Meyrat, J. (1914). Dictionnaire National Des Communes De France Et D'Algerie. (H. d. Commerce, Éd.) Paris, france: Hon.
10. Mohamed, Roched. (s.d.). Isabelle Eberhardt Le Dernier Voyage. Alger, Algerie, ANEP.
11. Paquay. (1899-1905). Les pénétration Saharinne Résumé Histrique. (Editeur, Éd.) Paris, France: Heni Charles La Vauzelle .
12. Paul, R. (1981). Dictionnaire Universel Des Noms Propres. Paris: Le Petit Repert.

13. Shell. (1934-1935). Guide De Tourisme Automobile Et Algérien Au Sahara.
(S.éditeur, Éd.) Alger: Shell.

- قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية :

1. إيزابيل أبراهاردت. (2014). كتابات على الرمل (المجلد 1). (عبد السلام المودني، المترجمون) بيروت، لبنان -ألمانيا: دار الجمل.
2. بوداود بلعرج. (2021). الشيخ بوعمامة وإيزابيل أبراهاردت لقاء أم مصير. (منشورات الوطن اليوم، المحرر) سطيف، الجزائر: مساهمة جمعية صافية كتو .
3. خليفة بن عمارة. (2013). تاريخ الجنوب الغربي الجزائري الأعلى عين الصفراء المشرية البيض النعامة. (عمير بوداود، المترجمون) وهران، الجزائر: دار القدس العربي.